مقابلات بين أقوال جحا

وأقوال الشعراء والكتاب

للأستاذ كامل كيلاني

(بقية المنشور في العدد ٦٦٦)

٥ — صغار الأشياء

يقول شيخنا المعري :

العمل — وإن قل — يستكثر ، إذا اتصل ودام ، لو نطقت كل يوم لفظة سوء ، لاسودت صحيفتك في رأس العام .

ولو كسبت كل يوم حسنة ، عُدِدْتَ — بعد زمن — من الأبرار .

دموعه تجري على خده . فهمست في فزع : — صلاح . مابك ؟ أتبكي ؟ ... قم يا حبيبي . قال : دعيني . قلت ما بك يا حبيبي ؟ قال : رأيت رؤيا مفزعة . رأيت نفسي أطرد من الجنة » .

ولا تنتهي الأقصوصة حتى يكون هذا الواثق في نفسه وقوة إيمانه ، المستمر بمكانه في الجنة ، القاسي على الضعف والخطيئة ... معذبا مولها ، لا تهب عليه نسائم الرحمة إلا من الإقرار بالضعف والخطيئة والرجوع إلى التواب الغفار عن طريق الخطأ والاستغفار !

« ونهض صلاح ليغتسل من إثمه ، وانطلق حزيناً كئيباً يحتقر نفسه ، ويعجب لضعفه ، وسمع صوتاً آتياً من أغوار نفسه كأنه همس ينبعث من مكان سحيق ، ولكنه بلغ أذنيه واضحاً قوياً ، وانساب فيها عذباً ندياً :

« كل ابن آدم خطّاء . وخير الخطائين التوابون »

فتمتم والدموع تخضب وجهه : «اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك»

هذا عمل فني رائع لا تصوره تلك المقتطفات بل تشوهه !

وإن المؤلف الشاب ليستطيع أن يأتي بكل أعماله إلى البحر ، ثم يقف بهذا العمل الفني وحده . فإذا قدر له أن يخرج عشر أقاصيص فقط من هذا الطراز ، فليكن على ثقة أنه سيسلك في سجل العظماء من رجال الفنون ! ولكن هذا عمل عسير !!!

سيد قطب

إن اليوم ائتلف من الساعة ، والشهر اجتمع من الأيام ، والسنة من الشهور ، والعمر يستكمل بالسنين » .

الرجل مع الرجل عصبة ، والشعرة مع الشعرة ذؤابة (وهي الضفيرة المرسلة من الشعر) والحجر فوق الحجر جدار ، والنخلة إلى النخلة حائش (جماعة من النخل) .

ويقول بعض شعراء أوربة .

« قطرات المياه منها محيط وصغار الحصى تكوّن أرضا
ودقيقاتنا تؤلف جبلا بعد جيل في إثره يتقضى
وقليل الحنان والحب مما يجعل الأرض جنة الخلد خفضا »

فكيف يعبر صاحبنا عن هذه المعاني بأسلوبه الجحوي الفاتن:

٦ — برميل العسل

يقول :

« كان والينا الجديد — فيما سمعت وسمع غيري من الناس — مما ترامى إلينا من أخباره يحب العسل حباً شديداً ، ويؤثره على غيره من ألوان الحلوى ولذائذ الفاكهة جميعاً .

وقد احتشدنا لاستقباله وتأهبنا للاحتفاء بمقدمه بعد أن اجتمع رأينا على أن نهدي إليه برميلا كبيراً نملأه بأحب الطعام إليه وهو العسل .

وتعاهدنا على أن يسهم كل واحد منا في تلك الهدية بأيسر نصيب . فيأتي في ذلك البرميل الكبير بمقدار فنجان صغير .

وخطر ببالي — حينئذ — خاطر عجيب فقد سوّلت لي نفسي أن أهرب من أداء هذا الواجب اليسير الذي لا يكلفني شيئاً .

وقلت في نفسي ، والنفس أمارة بالسوء :

إن مئات غيري من الناس ، سيقومون بأداء هذا الواجب عني . ولن تقدم هديتي شيئاً وإن تؤخر . فلو ملأت الفنجان ماء أو عسلا لما نقصت الهدية شيئاً ولا زادت ، ولما شعر أحد بتقصيري .

ولكن شد ما دهشت حين فتح الوالي برميل العسل أمامنا . فوجده مملوءاً ماء كله . وليس فيه قطرة واحدة من العسل .

لعلكما أدركتما السر في ذلك — يا ولدي — فإن تلك الفكرة الخاطئة التي مرت على بالي ودفعتني إليها الأثرة والأنانية

إلى إنقاذها قد مرت على بال كل واحد من أصحابي المئين الذين اجتمعوا لتكريم الوالي .

وهكذا كانت هديتنا إليه رميل ماء لا رميل عسل . وقد تركت الهدية في نفس الوالي بعد ذلك أسوأ الأثر ، وكانت سيرته معنا كما كانت سيرتنا معه من أقبح السير .

وكان هذا أبلغ درس وعيته في شبابي ، وأدركت مغزاه ، فلم أنسه طول حياتي .

٧ — دولاب الزمن

يتمثل بعض الشعراء ، فيما يتمثلون من أخيلتهم البارعة ؟ أن الزمن بحر ، ونحن راكبوه على سفائن — من أعمارنا — لا تلبث أن تحطمها الأمواج المصطخبة الثائرة . وفي هذا يقول شيخ المعرة :

« ركبنا على الأعمار والدهر لجة فما صبرت للموج تلك السفائن »

ثم يتمثل شاعر آخر أن سفينة الحياة تخيل لرائيها أنها واقفة على حين يجري بها الزمان ، وفي هذا يقول (مهيار الديلمي) :

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة نُظَنُّ وقوفا والزمان بنا يجري »

ثم يتمنى شاعر ثالث لو استطاع أن يلقي بمراسي هذه السفينة في ذلكم البحر الزمني ، لتقف ولو يوما واحداً ، فيقول الشاعر المبدع « لامرتين » في قصيدته البحيرة وهو من المعاني التي افتن الشعراء فيها وأبدعوا في صوغها وتصويرها إبداعا :

« هكذا وأبدا ، نظل مدفوعين إلى سواحل جديدة من الحياة في ليل الأبدية المظلم ، لا رجع ولا عود . فهل يتاح لنا أن نلقي مراسي سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن ؟ وهل يقر قرارنا يوما واحدا ؟ »

وقد أبدع البحتري — قبل لامرتين — في هذا المعنى أي إبداع حين قال :

« ليت أن الأيام قام عليها من إذا ما مضى زمان يعيده »

ومن قبلهما التفت « امرؤ القيس » إلى طول الليل التفاتة فريدة ، فتمثله خياله المبدع الوثاب ، كأنه واقف لا يتحرك ، بعد أن شدت نجومه — إلى جبل يذبل — بأوثق الأسباب ، وأمتن الحبال لتمنع الليل عن الحركة ونموه عن الانتقال . فقال في معلقته الخالدة :

« فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

ثم جاء المعري فمثل لنا العاشق الولهان يود لو استطاع أن يديم ظلام الليل فلا ينتهي ، ويتمنى لو يزيدُ في سواده سوادَ قلبه وسواد عينه ليطيله قليلا . فقال :

« يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر »

وقال صَرَّدر :

« يا ليت عمر الفتى يُمَدُّ له ما امتدّ منه الرجاء والأمل »

وقال :

« فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا كلما فني الشهر »

ثم جاء « ابن الفارض » فقال :

« يا ليل طل ، يا نوم زُل يا صبح قف : لا تطلع »

ولو شئنا أن نتقصى ما قاله الشعراء في هذا الباب لامتد بنا نفس القول دون أن نبلغ من ذلكم مداه . ولكن حسبنا أن نشير إلى قول الشريف الرضي :

« يا ليلة كاد من تقاصرها يعثر فيها المشاء بالسحر »

وقوله :

« ردوا عليّ ليالي التي سلفت لم أنسهن ولا بالعيش من قدم »

وقول مالك بن الريب :

« فليت القضا لم يقطع الركب عرضه
وليت القضا ماشى الركاب لياليا »

وقول الشريف أيضاً :

« ولو قال لي الغادون ما أنت مشته
غداة جزعنا الرمل : قلت أعود »

يحسبنا هذا القدر على وجازته . وقديماً قالوا :

« حسبك من القلادة ما أحاط العنق » .

فلننتقل إلى الدعابة الجحوية لنرى كيف تعبر في سذاجة نادرة عن هذه الأعماق والدقائق المعنوية ، التي صاغها المبدعون في دورة الفلك ودولاب الزمن :

يُسأل جحا وهو صغير :

« أيكما أكبر : أنت أم أخوك ؟ » .

فيقول :

« أخي يكبرني بعام واحد ، فإذا جاء العام القابل تساوينا في العمر » .

ويُسأل وهو كبير :

« كم سنك يا جحا ؟ » .

فيقول : « أربعون عاما ! » .

فيقول له بعض سامعيه :

« ألم تقل لنا ذلك منذ سبعة أعوام ؟ » .

فيجيب جحا في غير تلعثم ولا ارتباك :

« وهل يغير الحرُّ كلامه ؟ » .

* * *

فأنت ترى في القصة الأولى : تدفعه الرغبة المفكرة ، أو التفكير الراغب (Wishful thinkngi) إلى أن يتمثل : أن دولاب الزمن قد وقف بأخيه عاما ليدركه جحا .

فإذا كبر : دفعته الرغبة أن يتمثل قدرته على وقف دورة الفلك عند سن الأربعين لأنه لا يريد أن يتخطى هذه السن أبدا . وحسبه أن يعيش على هذه الأمنية ما دام في تخيلها سعادته .

ورحم الله الشاعر الذي يقول :

« مُنى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا »

٨ — المرأة والسن

ومن بديع لفتاته حين رأى صديقاً له مكتئباً حزيناً ، فسأله عما يحزنه ، فقال :

« لقد نشب بين زوجي وأختها عراك عنيف لا أدري كيف ينتهي ، وقد جئت لأستعين بك على فض ذلك النزاع بحكمتك وكياستك » .

فسأله جحا : « أتراهما تشاجرتا لاختلافهما على عمريهما ؟ »

فقال له : « كلا يا صاحبي لم يدر لهما هذا المعنى على بال » .

فقال جحا : « عد إلى بيتك مطمئناً فلن يطول شجارهما يا صاحبي » .

٩ — الإسراف والاعتدال

يقول الشاعر :

« يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكرهُ
ليس يَرضَى المرء حالا واحدا قتل الإنسان ما أكفرهُ »

ويستمع صاحبنا جحا إلى رجل يشكو زمهرير الشتاء ويلعن برده القارس ، ويتبرى للشاكي أحد المتحذلقين فيمنفه على شكواه ، ويقول له : « لقد كنت تشكو في الصيف الماضي وقدة الحر ، وعنف القيظ ، فمالك تبرم بالشتاء إذا جاء ؟

فيعجز الشاكي وأصحابه عن الإجابة ، ويلتفت جحا التفاتة رائعة . فيقول :

« لقد طالما شكا الناس زمهرير الشتاء ، وقيظ الصيف ، فهل رأيت أحداً يشكو : اعتدال الربيع ؟ » .

وكأنما أوحى بهذه الإجابة البارعة إلى ابن الوردي قوله في ذم الإسراف والغلو :

بين تبـــذير وبخل رتبة وكلا هذين ، إن زاد قتل

١٠ — مناجاة النفس

ويقولون : إنهم سمعوا جحا يتحدث في غرفته وليس معه أحد ، وكأنما يحدث شخصاً آخر ؛ فلما فتحوا باب الغرفة ليتعرفوا جلية الأمر وجدوه يحدث نفسه . فسألوه : « كيف تحدث نفسك يا جحا ؟ » .

فقال : « لقد برمت بغباء الناس وضيق عقولهم ، وعجزهم عن فهم الدقائق التي تقصر أفهامهم عن بلوغها . واشتقت إلى محادثة بارع فطن ذكي يفهمني وأفهمه ، فلم أجد غير نفسي ، فرحت أناجيها وأفضي إليها بدخيلتي » .

ألا تذكرنا هذه القصة بقول الشاعر الأندلسي المبدع « ابن حديس » .

« سواي من يعتد من أنسه ما نال من حظ ومن كأسه
وحق مثلي أن يرى خاليا بنفسه يبحث عن نفسه »

* * *

وقد نسبت هذه القصة إلى الساحر المبدع « برنارد شو » ، كما نسبت إلى جحا من قبله . ولعلها من مختلقات الرواة ؛ فإذا صحت نسبتها إليه أيضاً فهي من توارد الخواطر ، وما أكثر ما تلتقي العقول الكبيرة كما التقت عقول جحا وبرنارد شو وابن خفاجة الأندلسي .

كامل كيلاني